أهمية موقع الحضر وأثره في موقف القوى المجاورة لها

م.د. سالم أحمد محل*

تاريخ التقديم: 1994/4/18 تاريخ القبول: 1994/5/22

المقدمـــــة

شكلت الحضر كياناً عربياً شمال العراق على طرف البادية الغربية. وقد ازدهرت بعمرانها ومعابدها التي لا يزال بعضها قائماً حتى اليوم يحكي قصتها ويشهد على ما بلغته من ثراء وقوة.

وقد كان لهذا الموقع أثره في ازدهار الحضر حضارياً واقتصادياً، كما كان له أهمية مماثلة في تشكيل علاقة الحضر بالقوى المجاورة (عربياً على صعيد انتشار وتنقل القبائل العربية في هذه المنطقة قبل عدة قرون من الميلاد) واجنبياً على صعيد العلاقة مع البارثيين والرومان والساسانيين.

وقد آرتأى الباحث أن يتابع هذا الأثر الذي أفرزه موقع الحضر الجغرافي داخلياً على هذا الكيان وما سببه من رقي حضاري له، ودور مؤثر في المنطقة بعد الميلاد، وخارجياً عندما جعل منها هذا الموقع عنصراً مهماً من عناصر الاستقرار والازدهار الاقتصادي (بالنسبة للبارثيين) وعنصراً عائقاً ويمثل حجر عثرة بالنسبة للسياسات العدوانية– التوسعية للرومان والساسانيين.

ولكي نلم بكافة جوانب الموضوع فقد حصلت القناعة على تتبع الأبعاد التي تمخض عنها هذا الموقع وهي :

أ - البعد الاقتصادي.

ب -البعد البشري (العسكري).

ت - البعد الديني.

ثم علينا فيما بعد أن نتناول التداعيات التي شكلتها الأبعاد الثلاثة أعلاه على كيان الحضر ومستقبلها ومصيرها.

---

* قسم التاريخ/ كلية الآداب/ جامعة الموصل.

موقع الحضر

تقع الحضر في القسم الجنوبي الغربي لمدينة الموصل وتبعد عنها حوالي (110) كيلومترات. وتمثل بهذا الموقع البوابة المطلة على الحافة الشرقية لبادية العراق الغربية[1].

وعلى هذا فإن موقعها لم يتح لها الإفادة من نهر دجلة المنساب إلى الشرق منها فاعتمدت على مياه الأمطار التي كانت تنساب من على المنحدرات المجاورة فتشكل مناقع تتجمع فيها تلك المياه الأمر الذي ساعد على استقرار الحضريين في هذه المنطقة. فضلاً عن أنهم بنو الصهاريج لحفظ المياه والإفادة منها عند انقطاع الإمطار وحلول فصل الجفاف، كذلك فقد حفروا الآبار التي صارت أحد عوامل الاستقرار[2].

وموقع الحضر هذا شبيه ومناظر لموقع تدمر على طرف الصحراء السورية وكذلك موقع البتراء على الحافة الشمالية لصحراء شبه الجزيرة العربية. وغير هذه من المدن الصحراوية التي تطورت وازدهرت لملائمة الظروف المناسبة لوجودها[3]، كموضوع الماء والكلأ في البادية أو في بعض المواضيع غير البعيدة عنها، وخاصة في الأماكن التي تشكل عقداً تلتقي بها طرق القوافل[4].

وقد كانت البدايات في تحضر هذه القبائل التي تجوب الصحراء وذلك عندما يتم استقرار بعضها حول موضع للماء على خطوط سير القوافل فيبدأ ساداتها (شيوخها) بأخذ (أتاوات) عن التجارة التي تمر بها وأحياناً عن التجارة التي تحمل إليها لبيعها في أسواقها فيحصل هؤلاء على دخول لا بأس بها من هذه الجباية، التي تصل في بعض الأحيان إلى حد التعسف للتجار. ولكن هؤلاء (التجار) لا يجدون مناصاً من الدفع عندما تكون مواضع هؤلاء السادات (الشيوخ)

---

(1) سفر، فؤاد: الحضر مدينة الشمس: مؤسسة رمزي للطباعة/ بغداد/ 1974 ص17.

(2) دانيال، كلين : موسوعة علم الآثار : تعريب ليون يوسف / مطابع دار الحرية / بغداد / ص270.

(3) سفر: ن.م ص17.

(4) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام: دار العلم للملايين/ ط2 بيروت/ 1977/ جـ2 ص605.

واقعة ومتحكمة بالعصب الضروري الرئيس للتجارات المارة بالبادية، إذ ليس لأصحاب القوافل الكبيرة المحملة بالتجارة بد من المرور بتلك المواضع[1].

أن استمرار القوافل التجارية في سلوك مثل تلك الطرق، ومرورها بتلك المواضع (مثل) قد زاد في عائدات شيوخ هذه الكيانات وزعامات ها مما أجج فيهم رغبات قد زاد في عائدات شيوخ هذه الكيانات وزعامات ها مما أجج فيهم رغبات واسعة على التوسع والطموح والسيطرة على الآخرين[2]. على أن لمثل هذه المواقع الحيوية آثارها السلبية عليها. إذ يرى الدكتور جواد علي بأن هذه المواضع المهمة التي نشأت على طرق التجارة، بقدر ما شكلت هذه الطرق من نعمة عليها، إلا إنها صارت نقمة عليها "إذ طالما قضت عليها بالموت"وذلك عندما يجد التجار وأصحاب القوافل طرقاً أسهل وأكثر أماناً وأقل تكاليف[3]. ونحن لا نتفق مع الدكتور جواد علي فيما ذهب إليه فاستناداً إلى المعطيات التاريخية التي بين أيدينا فقد سقطت الكيانات العربية الثلاث ابتدأ بالأنباط (106م) والحضر (241م) وتدمر (272م) بفعل تعرضها لهجوم قوى كبرى عليها انتهت بالقضاء عليها وزوالها.

وعلينا أن نحلل أثر الوقع (موقع الحضر) في الوضع الاقتصادي لها وانعكاساته على أمنها ومستقبلها ومصيرها فيما بعد.

أفادت الحضر من موقعا المتميز على طريق التجارة الدولية بين الشرق والغرب عندما تولت دور الوسيط التجاري بنقل البضائع بين موانئ الخليج العربي ومدن السواحل الشرقية للبحر المتوسط[4]، أو عندما أخذت على عاتقها حماية الطريق التجاري هذه من الأخطار التي تهدد القوافل الذاهبة من العراق إلى بلاد الشام أو بتوفير وسائل الراحة للتجار من المياه والخانات والأعلاف لحيواناتهم وإجراء المبادلات السلعية في سوقها.

---

(1) نفسه: جـ2 ص605 – 606.

(2) نفسه: جـ2 ص606.

(3) نفسه: جـ2 ص606.

(4) سفر، فؤاد: ن.م ص17، جواد علي: المفصل جـ2 ص609–610.

لقد كان موقع الحضر على الطريق التجاري التي تربط بين عاصمة السلوقيين (السلوقية) الواقعة في بلاد العراق بأرض المدائن على أرض دجلة والطريق الثاني التي تمتد منها إلى أنطاكيا العاصمة الثانية للسلوقيين في بلاد الشام قد فتح أمامها مجالات الرحبة للتجارة إذ تولت نقل تجارة أسيا إلى تجارة أوربا كما نقلت تجارة أوربا وحاصلاتها إلى تجار آسيا فعاد ذلك عليها بعائداتٍ مالية كبيرة مما زاد في ثراء سكانها كما ازدات المدينة توسعاً وعمراناً[1] حتى أنّ حدودها قد امتدت من نهر دجلة والى الفرات غرباً ومن جبال سنجار شمالاً وحتى مشارف المدائن جنوباً وفي فترةٍ لاحقة فقد تجاوزت حدودها في الشمال لتمتد إلى ما وراء جبال سنجار فتصل إلى الخابور ونصيبين[2].

وقد كان لقيام الدولة البارثية في العراق بحدود سنة 126ق.م أثرٌ كبيرٌ في انتعاش الحضر وزيادة أهميتها الاقتصادية والعسكرية لها في هذه المنطقة فقد دخل هؤلاء في نزاع مسلح مع السلوقيين في سوريا (اليونان). وقد ساعد موقع الحضر الجغرافي النائي على طرف الصحراء بين القوتين المتصارعتين على أن يستغل امراؤها وسادتها بحكمة ودهاء ايجابيات هذا الموقع فحصلوا على أموال من كلا الطرفين[3]. ويبدو أن كل طرف كان يريد أن يكسب إلى جانبه أمراء الحضر لكي يكونوا عوناً له على خصمه في حمى الصراع بين الجانبين.

ويبدو أن السلوقيين في سوريا ومن بعدهم الرومان أدركوا أهمية موقع الحضر"على طرق الاقتراب من العاصمة الكبرى طيسفون"[4]. وما يمكن أن تقدمه الحضر لهم في حالة انحيازها إلى جانبهم ولا يبدو أن هذه الحقيقة غائبة عن البارثيين فمن المؤكد أنهم يدركون أن جزءاً من أمنهم الوطني يقع بين ايدي سادة الحضر. ولذا راح الطرفان يتسابقان إلى كسب ود أمراء الحضر وإغرائهم بالمال ليضمنوا وقوفهم إلى جانبهم.

---

(1) سفر: ن.م ص17.

(2) سوسة، أحمد: تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الاثارية والمصادر التاريخية/ دار الحرية للطباعة بغداد/ 1986/ جـ2 ص189.

(3) علي، جواد: ن.م جـ2 ص609.

(4) سفر، فؤاد: ن.م ص18.

على أن السياسة التي اتبعها ملوك الحضر في تعاملهم مع القوتين الكبيرتين آنذاك وهما البارثيون والرومان لم تكن ثابتة ودائمة فقد طرأ عليها تغير كبير كان لصالح الباراثيين وذلك عندما انحاز ملوك الحضر إلى جانب هؤلاء بفضل السياسة السلمية اللامركزية التي اتبعها الملوك البارثيون في التعامل مع الكيانات الأصغر في العراق كالحضر وميشان وغيرهما[1].

كان نظام الحكم في الدولة البارثية يقوم على اللامركزية في الإدارة فكان لكل طائفة من الطوائف التي كانت تحكم في العراق أو ايران سلالتها الحاكمة التي كانت تتمتع بالاستقلال الذاتي، وإدارة شؤونها الداخلية بمحض حريتها وإرادتها، وحقها في ضرب النقود، وممارسة حريتها الدينية، ونظمها الوطنية وجباية الضرائب على أن تكون فقط مرتبطة بالمركز البارثي في (طيسفون) برابطة الدفاع المشترك وذلك بتقديم ملوك هذه الكيانات الرجال والأموال للملك البارثي عند وقوع حرب بينه وبين دولة أخرى[2] لذا فالمؤرخون العرب على حق عندما أطلقوا على الدولة البارثية اسم"ملوك الطوائف"[3].

ويرى ابن كثير أن (ملك الحضر كان مقدماً على بقية ملوك الطوائف)[4]. وهذا يعكس مدى الأهمية العسكرية للحضر وما يمكن أن تحدثه بإخلال بموازين القوى بين البارثيين والرومان.

ولابد من التأكيد على أن القوة العسكرية التي اكتسبتها الحضر، وجعلت لها مكانة يحسب لها الحساب بين البارثيين والرومان إنما تعود إلى قوتها

---

(1) صايغ، سليمان: تاريخ الموصل/ المطبعة السلفية/ مصر/ 1923جـ1 ص18.

(2) كريستنسن، آرثر: إيران في عهد الساسانيين: تعريب يحيى الخشاب دار النهضة العربية، بيروت ص8. ويورد كريستنسن في استقلالية الكيانات التي تتكون منها الإمبراطورية الباراثية ما يلي:"ويظهر ان لقب ملك لم يكن قاصراً على الحكام من البيت المالك– وهي العادة التي كانت متبعة دائماً في إيران– بل أن الثماني عشر ولاية كانت تسمى ممالك". أنظر: كريستنسن: ايران ص8. وفؤاد سفر: الحضر مدينة الشمس ص17.

(3) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: السيرة النبوية/ تحقيق مصطفى عبد الواحد/ مطبعة عيسى البابي الحلبي. القاهرة/ 1964 جـ1 ص55.

(1) الملاح، هاشم: الوسيط في تاريخ العرب قبل الإسلام/ دار الكتب للطباعة والنشر/ الموصل/ 1994 ص149.

الاقتصادية وثراؤها يعود أيضاً إلى أهمية الموقع الجغرافي على عقد المواصلات التجارية بين أسيا وأوربا وللتدليل على تلك الأهمية العسكرية نقول بأن الحضر قد اشتركت فعلياً في المعارك التي دارت رحاها بين البارثيين والرومان في آسيا الصغرى في عهد الملك البارثي افراهاط الثالث (69– 57ق.م) وابنه ورود الثاني (57–36ق.م)[1].

وفي رأينا أن هذا الموقف لمملكة الحضر باشتراكها فعلياً بالحرب إلى جانب البارثيين وضعها؟؟؟ في الخندق المعادي للرومان مما يجعلنا نستبعد مستقبلاً أية محاولة رومانية لكسب ودها ؟؟؟ أو تحييدها في الصراع الدائر بين البارثيين والرومان. بل على العكس من ذلك فقد حاول الرومان في فترة لاحقة محاصرتها والقضاء عليها وهو ما سنتناوله لاحقاً في هذا البحث.

ث -البعد البشري :–

كان انهيار الدولة الأشورية وسقوطها إلى الأبد سنة 614ق.م على يد الميديين والبابليين إيذاناً بتغييرات حيوية في الخريطة السياسية لمنطقة الشرق الأوسط آنذاك.

فبعد أن ظلت هذه الدولة تتحكم في مصائر المنطقة وتهيمن على مقدراتها بسبب ما أوتيت من قوة وسطوة، فقد أحدث انهيارها فراغاً سياسياً في هذه المنطقة عندما انهارت بانهيارهم تحصيناتهم، وتداعت ثغورهم ومنها تلك التي كانوا قد أقاموها على نهر الفرات لمنع تدفق القبائل العربية إلى أقاليم غرب وشمال غرب العراق وشرق بلاد الشام والشمال الشرقي لها[2].

لذا فقد حصلت هجرة واسعة للقبائل العربية، حال انهيار الدولة الأشورية إلى جزيرة بادية العراق الشمالية من الغرب والجنوب الغربي وامتدت إلى نصيبين وديار بكر شمالاً فزعزعت الاستقرار في جميع أرجاء هذه المنطقة وأفرزت هذه التحركات القبلية، وما خلفته من تهديد للاستقرار إلى نمو كيان الأنباط في منطقة

(2) سفر، فؤاد: ن.م ص17.

(1) نفسه: ص17.

البتراء، واندفاع قبائل عربية جديدة أخرى شمالاً إلى ما وراء مدينة الرُها إلى سهل انطاكية[1].

إنّ هذه الهجرات العربية الواسعة في القرن السابع قبل الميلاد تذكرنا بالهجرات العربية الأقدم التي خرجت من الجزيرة العربية كالأكديين والامورريين والأشوريين مضيفة بذلك طابعها العربي على هذه المنطقة.

فقد أصبحت الأقاليم الشمالية من بلاد ما بين النهرين منذ بداية الاحتلال الآخميني للعراق عام (539ق.م) تعرف باسم عربايا أي (بلاد العرب)[2]. وهي تسمية تكشف عن حجم التوطن العربي في هذه المنطقة بعد وزال كيان الآشوريين.

وأصبحت القبائل العربية تتنقل في هذه الربوع بين العراق وبلاد الشام إلى النواحي الشمالية الغربية للعراق والشمالية الشرقية لسوريا منذ القرن السابع قبل الميلاد تقريباً.

صارت الحضر التي يسود الاعتقاد بوجود مستوطن آشوري فيها مركزاً لتجمع القبائل العربية بسبب وجود المنخفضات المائية المنسابة من المنحدرات المجاورة، أو بحفر الآبار التي تميزت ميها بالوفرة والعذوبة فأخذت بعض بطونها بالاستقرار الأمر الذي زاد من عدد سكانها فتحولت من قرية إلى مدينة[3].

لكن هذه المدينة لم تقتصر في وجودها وحياتها على إمكاناتها الذاتية التي توفرت لها عن طريق مرور القوافل التجارية بها فحسب، وإنما أصبحت بمثابة المركز الذي تتجمع حوله القبائل العربية. وقد أظهرت بعض المكتشفات الكتابية في الحضر مثل هذه العلاقة. ففي لوحة النسر المؤرخ نصها بسنة 463 من التاريخ السلوقي الموافق (152– 151م) يذكر : اختيار"شمشبرك سادناً

(2) نفسه: ص17–18، سوسة، احمد: ن.م جـ2 ص189.

(3) خليل، د. جابر: منطقة الموصل في فترة الاحتلال الأجنبي الاخميني والسلوقي والفرثي، موسوعة الموصل الحضارية/ مطابع دار الكتب/ الموصل/1991جـ1 ص139وانظر: فؤاد سفر: الحضر ص18.

(1) الصالحي، واثق إسماعيل: كتابات الحضر، مجلة سومر العدد(34) السنة 1978ص70، د. جابر خليل: ن.م جـ1 ص140.

للحضريين، شيباً وشباناً وللعرب كلهم ولكل من مر بالحضر ولكل من سكن (اسطون) بالحضر"[1].

ولهذا النص أهمية كبيرة إذ إنّه يلقي الضوء على العلاقة التي كانت تربط بين الحضر وبين العرب (القبائل العربية). لقد كان سكان الحضر عرباً، وكانت المدينة مركزاً حضارياً لهم، وقد أطلق اسم الحضريين على سكان المدينة (الحضر) للتفريق بينهم وبين إعراب الجزيرة المنتشرين حولها. وأطلق بعض ملوكهم على أنفسهم لقب"ملك العرب"[2]. ومما زاد في قوة ارتباط القبائل العربية بمدينة الحضر هو العامل الديني الشديد التأثير في النفوس في تلك العصور. فقد أصبحت الحضر بمثابة الكعبة لعرب الجزيرة العربية. إذ وضعت القبائل العربية فيها أصنامها عندما أنشئ فيها بيت للأصنام. كانت تحج إليها في أعيادها وتدفن بالقرب منه موتاها، وتقدم فيه نذورها وقرابينها التي تتقرب بها إلى آلهتها[3].

وقد كشفت الكتابات التي عثر عليها في الحضر اسم قبيلة عرفت ب"بني تيمو"بني"تميم"وقد ورد اسمها أيضاً في كتابات عثر عليها في وادي حوران، مما يدل على أن هذه القبيلة كانت من القبائل المعروفة في الجزيرة وفي بادية الشام في القرن الأول قبل الميلاد وما بعده وإنها كانت من القبائل المتنقلة[4].

وفي نص آخر من الحضر مؤرخ في 98م يرينا أن قبيلتين متحدثين هما بنو تيمو وبنو بلعقب أقامتا معبداً للآله نرجول على حسابهما الخاص، كما شيدتا مدفنا في الحضر سنة 108م[5]. وهذا يعني أن جماعة من بني تيمو كانوا يعيشون حياة البداوة وجماعة أخرى منهم تعيش في مدينة الحضر حياة الاستقرار. وهناك ما يشجع على الافتراض بأن بعض القبائل التي وردت اسماؤها في كتابات الحضر مثل بني اقلتا وبني رفشمش وعصليا وحرتفش وعقيبا والذين كانوا يعيشون

---

(2) الصالحي: ن.م ص71، د. جابر: ن.م جـ1 ص142.

(3) سفر، فؤاد: ن.م ص18.

(4) جواد علي: ن.م جـ2 ص618–619، وانظر: د. جابر خليل: ن.م جـ1 ص140.

(1) خليل، د. جابر: ن.م جـ1 ص140.

(2) نفسه: جـ1 ص140–141.

في الحضر كان بنو عمومتهم يعيشون في البوادي غير إنهم كانوا تابعين وخاضعين لسلطة ملك الحضر[1].

وهذا يكشف عن صلة الحضر المتينة بالقبائل العربية كونها تمثل الجزء المتحضر من القبائل العربية التي كانت تجوب البوادي بين العراق والشام.

ونظراً لوجود أصنام هذه القبائل في معابد الحضر لذا صارت بيد ملوك الحضر قوة لا يستهان بها وهي قوة القبائل العربية فقد أصبح أبناء هذه القبائل بمثابة جيش مستعد دوماً للقتال بيد ملوك الحضر. وهذا هو أحد الوسائل الفعالة الذي حافظ على كيان الحضر وجعلها تتجاوز الكثير من الشدائد التي تعرضت لها، إذ حالما تتعرض الحضر لأي خطر فإن القبائل العربية تهب فوراً لنجدتها والدفاع عنها[2]. وقد كان من حسن حظ الحضر أن تكون محمية بتلك القبائل العربية التي عرفت بقوة شكيمتها ومراسها في القتال وإجادتها لفنونه في الكر والفر وخفة فرسانها وقدرتهم على المناورة، وسرعتهم في الانقضاض على العدو، دفاعاً عن حريتهم واستقلالهم اللذين دائماً ما تتوق إليهما نفوسهم. إضافة إلى ذلك فإن الحضريين قد عرفوا نوعاً من السلاح وهو عبارة عن قذائف نارية كانوا يلقونها على العدو إذا هم بمحاصرة الحضر. وقد عرفت هذه القذائف ب"القذائف الحضرية"[3].

إن هذه القوة التي امتلكها الحضر والممثلة بالقبائل العربية وهو ما أسميناه"بالبعد البشري"كان أحد الأسباب التي جعلت القوى المعادية للعرب تفكر جدياً بالقضاء على هذا الكيان العربي.

ج -البعد الديني

كان الدين هو أحد الأسباب الكامنة في قوة الحضر. فالدين كان وما يزال عنصراً من عناصر التوحد والتجمع لأي مجتمع. وهو الهوية التي يكسب المجتمع شخصيته المميزة له بين المجتمعات في الكثير من الأحيان.

---

(3) سفر، فؤاد: ن.م ص18.

(4) نفسه: ص18.

(1) نفسه: ص18.

كان لمكانة الحضر الدينية بين القبائل العربية أثرها الكبير في تجمع هذه القبائل حول الحضر والدفاع عنها في أوقات المحن والأزمات، فقد كان لتلك القبائل أصنامها التي عبدتها ووضعتها في مدينة الحضر، وهذا ما يفسر كثرة المعابد والأصنام في هذه المدينة[1].

ففي مدينة الحضر كان المعبد الكبير الذي خصص لعبادة كبير الإلهة"شمس"ولم يكن هذا المعبد مركزاً للنشاط الديني والاجتماعي للحضريين وحدهم وإنما كان لجميع سكان الجزيرة ما بين النهرين، إذ كانت القبائل تحج إليه من مسافات بعيدة[2].

إن وجود الحضر بصفتها الدينية التي جعلت منها الكعبة للقبائل العربية في منطقة الجزيرة وما بين النهرين جعلها تستقطب القبائل العربية وتشعر هذه بوجود آلهتها وأصنامها في تلك المدينة مما يجعل حمايتها ورعايتها والمحافظة عليها من الأخطار التي تحدق بها مسؤولية جميع تلك القبائل.

لذا فقد ظل الدين بمثابة الرباط الذي يربط أبناء القبائل العربية ويشدها إلى المركز (الحضر) ويحافظ عليها من الانفلات والتشتت.

وأحسب أن القبائل العربية في هذه المنطقة قد تعاملت مع الحضر كتعامل إخوانهم في الجزيرة العربية مع الكعبة وكيف تصدت لمحاولة أبرهة الحبشي هدم الكعبة بعد ما يقارب من (330) سنة بعد سقوط الحضر.

وهكذا كان الدين مصدر قوة للحضر، وقوة الحضر نفسها أثارت مخاوف القوى الأخرى الطامعة في أرض العرب من احتمالات تزايد قوة الحضر ونفوذها إلى الحد الذي تستطيع به طرد القوى الأجنبية التي كانت تسيطر على العراق أو بلاد الشام، أو أنها على الأقل تفسد خططها وسياساتها الرامية إلى إبقاء نفوذها وسيطرتها على هذه المنطقة.

تداعيات الأبعاد الثلاثة على مصير الحضر :

---

(2) سوسة، احمد: ن.م جـ2 ص192–196.

(3) رو، جورج: العراق القديم: ترجمة حسين علوان حسين: دار الشؤون الثقافية العامة. بغداد/ ط2/ 1986 ص560–561.

تبين من العرض السابق في سياق هذا البحث أثر الموقع الجغرافي للحضر، وكيف تمخض هذا الموقع عن قوة الحضر حددناها بأبعاد ثلاثة : البعد الاقتصادي، والبعد البشري (العسكري)، والبعد الديني. إذ شكل من هذه الأبعاد الثلاثة قوة للحضر. لكن هذه القوة بقدر ما كانت في يوم من الأيام نعمة على الحضر وسكانها، صارت فيما بعد نقمة عليها وكانت السبب الذي أدى إلى القضاء عليها وموتها إلى الأبد.

لقد عاصرت الحضر ثلاث قوى كبرى في ذلك الوقت وهي الدولة البارثية (126ق.م– 224م) في العراق، والإمبراطورية الرومانية، والدولة الساسانية. وقد تعاملت مع هذه الدول، بحكم الجوار الذي أملاه عليها موقعها الجغرافي، على ضوء مصالحها الاقتصادية، وبما يضمن أمنها وحريتها. وعلينا أن نحلل موقفها من هذه القوى بل وموقف هذه القوى منها.

1 -الدولة الباراثية :

نجح الباراثيون، وهم من الشعوب الإيرانية التي أعلنت الثورة على الحكم السلوقي في بلاد إيران منذ سنة 250ق.م، في الاستيلاء على العراق سنة 126ق.م ولم يتعرض هؤلاء للإمارات والكيانات الصغيرة التي كانت قائمة في العراق آنذاك كالحضر، وميشان، وحدياب، وتركوا لهذه الإمارات والكيانات حرياتها وعباداتها واكتفوا منها بتقديم الرجال والمعدات والمال عند الحاجة[1]. ولذا كان أمراء الحضر أو ملوكها يشعرون بنوع من الاستقلالية، بل قيل إنّ ملك الحضر".... كان مقدماً على سائر ملوك الطوائف"[2].

وهذا الموقف من الدولة الباراثية تجاه الحضر جعل ملوكها يقفون إلى جانب الباراثيين في حروبهم مع الرومان. وقد تحقق هذا الموقف فعلياً أثناء الحرب التي خاضها الملك الباراثي ارهاط الثالث (69–57ق.م) وابنه ورود الثاني (57–36ق.م) ضد الرومان فاشتراك ملك الحضر فيها إلى جانب البارثيين، وربما كان هذا الموقف للحضر قد نبه الرومان إلى أهمية الحضر العسكرية وأهميتها

(1) ابن كثير: ن.م جـ1، ص55، سليمان، عامر وأحمد مالك الفتيان، محاضرات في التاريخ القديم، مؤسسة دار الكتب. الموصل/ 1978ص 227.

(2) خليل، جابر: ن.م ص138، علي، جواد: ن.م جـ2 ص613–614.

الاقتصادية على عقدة الطرق التجارية بين العراق والشام فأخذوا يخططون للاستيلاء على المناطق الشمالية الغربية من العراق وأعالي ما بين النهرين.

2 -الإمبراطورية الرومانية :

كان هدف الرومان من الاستيلاء على الأقسام الشمالية من بلاد الرافدين هو في الاستيلاء على الطرق المحاذية لدجلة والفرات لما تنطوي عليه من أهمية عسكرية وتجارية. فأخذ بعض أباطرة الرومان يخططون لتحقيق هذا الهدف ومنهم :

الإمبراطور دوميتان (81–96م) والإمبراطور تراجان (98–117م) والإمبراطور لوشيوس فيروس (221–217م) وسفيروس اسكندر (222–235م) وكوردون (238–243م)[1].

وبقدر تعلق الأمر بالحضر فإنّ الإمبراطور تراجان الذي اتجه إلى الشرق قد نجح في احتلال ارمينيا، ونصيبين وماردين واستولى على أنطاكيا واندفع جنوباً واحكم السيطرة على سنجار والطرق المؤدية إلى دورايوروبس (الرصافة) والحضر واستمر في سيره إلى جنوب العراق، وعاد منها إلى بابل ثم اتجه إلى الحضر التي كانت قد انقضت ضد الرومان ففرض عليها الحصار إلا أن الحصار فشل بسبب بسالة رجال الحضر، وقوة أسلحتهم (القذائف الحضرية) وحصانة أسوارهم فانسحب دون أن يحصل على مبتغاه وتوفي سنة 117م بعد فترة قصيرة من انسحابه[2].

وعلى اثر موت الإمبراطور لوشيوس فيروس سنة 169م حدث تنازع على العرش من قبل ثلاثة من قادة الرومان نيجر حاكم سوريا وسبتميوس فوقف ملك الحضر مؤيداً لنيجر حاكم سوريا إذ قدم برسميا (عبد سميا بن سنطروق الملك) عوناً عسكرياً تمثل بإرساله فرقة من النبالة الحضريين[3].

---

(3) علي، جواد: ن.م جـ2 ص614.

(1) خليل، جابر: ن.م جـ1 ص138.

(2) الأحمد : مؤيد سعيد: العراق خلال عصور الاحتلال ((الاخميني– السلوقي– الفرثي– الساساني)) ضمن كتاب العراق في التاريخ لمجموعة من الباحثين. دار الحرية للطباعة/ بغداد/ 1983 ص258 وانظر: جواد علي: ن.م جـ2 ص614.

وربما رأى ملك الحضر أنه من مصلحة الحضر استمرار النزاع بين قادة الرومان لان هذا النزاع إضعافٌ لقوتهم من ناحية ومن ناحية أخرى فقد ينصرفون عن التفرغ للكيانات الأصغر ومنها كيانه.

ولكن النزاع حسم بين القادة الثلاثة لصالح سبتميوس (193–211م) فأراد معاقبة نيجر حاكم سوريا والذين وقفوا إلى جانبه ومنهم ملك الحضر فقاد جيشه ووصل إلى الحضر بعد أن استولى على الرها ونصيبين ووصل طيسفون العاصمة الباراثية وخربها ثم اتجه إلى الحضر وضرب عليها الحصار عام 198م إلا انه اجبر على الانسحاب بسبب المقاومة العنيفة للحضريين واستخدامهم أقواساً مركبة ترمي بسهمين مرة واحدة، واستخدامهم للمقذوفات النفطية، وإلقائهم الجرار المليئة بالحشرات ومناعة أسوارها فتمكنوا من قتل عدد من حرس الإمبراطور[1]. وذهب إلى نصيبين على أمل أن يعاود الكرة على الحضر.

وفي سنة (200م) عاود الهجوم عليها لكنه لم يفلح أيضاً، مما كان له أثره بعدم تجرؤ أحد من أباطرة الرومان بعد ذلك في مهاجمة الحضر[2].

وهكذا خرجت الحضر معافاة من الخطر الروماني الذي ظل محدقاً بها ما يقارب المائة عام.

3 -الدولة الساسانية :

كان تمرد اروشير في إقليم فارس على الدولة الباراثية نذير شؤم بالنسبة للحضر. فما أن تمكن من قتل الملك البارثي اردوان الخاص (224م) في معركة هرمز دجان في الأحواز وتتوجه ملكاً حتى أعلن أنه جاء لإحياء مجد آبائه الملوك الاخمينيين[3] ونبذه للسياسة اللامركزية التي كان ينتهجها الملوك الباراثيون.

---

(3) خليل، جابر: ن.م جـ1 ص138.

(1) كرستنسن آرثر: ص84.

(2) قامت الدولة الاخمينية بحدود 569ق.م في إقليم فارس ونجحت في ضم جميع بلاد إيران وظلت تتوسع فاحتل كورش بابل 539ق.م واحتلت مصر وبلاد الشام فدخلت في صراع دموي مع اليونان حتى تمكن الاسكندر المقدوني من القضاء عليها سنة 331ق.م في معركة كوكاميلا قرب اربيل. للتفاصيل راجع: رو، جورج: العراق القديم ترجمة حسين علوان حسين: دار الشؤون الثقافية. بغداد ط2/ 1986.

فأحتل ميشان وحدياب، وسعى لإقامة دولة تقوم على المركزية أساسها الملكية والنسب والديانة الزرادشتية[1].

ويبدو أن سياسة اردشير هذه قد أرعبت ملوك الحضر، فبدأوا بالبحث عن حليف قوي يلجأون إليه ضد هذا الخطر الذي هو أتٍ عليهم لا محالة. فأظهروا عدم اعترافهم بسلطان الدولة الجديدة (الدولة الساسانية) وتحالفوا مع الرومان دوراً لهذا الخطر[2].

وفعلاً فما أن انتهى اردشير من ابتلاعه للإمارات القائمة في بلاد العراق وبلاد إيران حتى توجه إلى الحضر للقضاء عليها، ففرض الحصار عليها ولكنه عجز عن اقتحامها[3].

وليس في مصادرنا ما يشير إلى مساعدة الرومان في مواجهة اردشير مما يدل على أن تحالفهم كان واهن العرى ولم يترجم إلى عمل عسكري على ارض الواقع.

ويبدو أن محاولة اردشير هذه لاحتلال الحضر والتي حاق بهذا الإخفاق قد نبهت أولي الأمر في الحضر إلى خطورة الدولة الجديدة على أمنهم ووجودهم.

تشير مصادرنا العربية إلى أن ثورة قامت في الأقاليم الشرقية من الدولة الساسانية، وان الملك الساسانية سابور الأول الذي خلف أباه على العرش سنة (241م) قد ذهب إلى هناك لإخمادها. وأنّ ملك الحضر الذي تسميه بعض هذه المصادر الضيزن اغار على السواد فنهب وغنم وسلب ومن بين غنائمه (ماه) أخت الملك سابور[4].

---

(3) خليل، جابر: ن.م جـ1 ص138.

(4) كريستنسن، أرثر: ن.م ص77.

(5) الطبري محمد بن جرير: تاريخ الرسل والملوك. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم/ دار المعارف1962جـ2، ص 48، الثعالبي، أبو منصور: تاريخ غرر السير/ طهران / 1963ص489–490، المقدسي، المطهر بن طاهر: البدء والتاريخ/ مطبعة شالون/ 1903 جـ3 ص157.

(1) الطبري: ن.م جـ2 ص47، الحموي، معجم البلدان– دار صادر جـ2 ص268.

والرواية العربية عن الضيزن والتي تعتبره الملك على الحضر في عهد سابور الأول (241–272م) توقع الباحثين في كثير من الغموض والالتباس. إذ لم تكتشف الكتابات التي عثر عليها في الحضر أو في غيرها من الأماكن ملكاً على الحضر بهذا الاسم.

ويرى الطبري أن"الضيزن"هذا كان شيخاً لأحد بطون قبيلة قُضاعة[1]. فإذا فإذا صحت روايته فنرجح أن يكون الضيزن هذا على علاقة متينة بملك الحضر باعتبار الحضر قاعدة القبائل العربية في البادية الغربية والشمالية الغربية للعراق، ولا نستبعد أنّه بتحريض وتشجيع من ملك الحضر قد قام بمهاجمة السواد واشتبك مع الساسانيين في معركة شهرزور

وعاد محملاً بالأسلاب والمغانم. فلما عاد سابور الأول من الشرق وأعلم بذلك قاد جيشه باتجاه الحضر فما كان من الضيزن سوى الدخول في حصن الحضر للدفاع عنها سوية مع ملكها.

وتنسب الرواية العربية شعراً لأحد شعراء قضاعة وهو عمرو بن آلة الجدي يخلد فيه معركة شهرزور ويفتخر بالنصر الذي حققه العرب على الفرس:

لقيناهم بجمعٍ من علاف * وبالخيل الصلادمة الذكور
فلاقت فارس منا نكالاً * وقتلنا هرابذ شهرزور
دلفنا للأعاجم من بعيد * بجمعٍ كالجزيرة في السعير[2]

نهاية الحضر

فلما قرب سابور من الحضر تحصن ملكها في المدينة هو ومن معه الذي ربما يكون الضيزن من بينهم. فضرب سابور الحصار عليها حتى استسلمت فدخلها وقتل ملكها وعاد إلى المدائن، وكان ذلك في حدود سنة (241م)[3].

---

(2) الطبري: ن.م جـ2 ص47–48.

(1) نفسه: جـ2 ص48، الثعالبي: ن.م ص489–490، المقدسي: ن.م جـ3 ص157.

(2) الطبري: ن.م جـ2 ص48، ابن الاثير، عز الدين: الكامل في التاريخ، دار صادر، دار بيروت للطباعة والنشر: بيروت/ 1965 جـ1 ص387، ابن خلدون، عبد الرحمن: العبر

ومن الملفت للنظر ان الحضر قد حوصرت أكثر من ثلاث مرات إحداها في زمن اروشير (224–241م) والد سابور ولكنها صمدت وخرجت منتصرة. فلماذا تمكن سابور هذه المرة من دخولها؟.

يبدو أن الحصار الذي ضربه سابور على المدينة كان طويلاً، وعلينا أن نصدق الرواية العربية التي تجعل مدة هذا الحصار عامين أو أربعة اعوام[1].

أما ما نسبته بعض المصادر العربية الى"النظيرة"ابنة الضيزن من خيانة مزعومة بتعاونها مع سابور وتسهيل مهمة دخوله للحضر فهي من قبيل الوهم والخيال[2].

أنّ قوة الحضر الاقتصادية والعسكرية كانت تتقاطع مع النزعة التوسعية للدولة الساسانية لذلك لم ييأس سابور الأول من مهاجمتها رغم علمه بالفشل الذريع الذي مني به والده اردشور في حصارها.

الخاتمة

وهكذا كان موقع الحضر الجغرافي عنصر قوة اقتصادية لها على طريق القوافل التجارية بين العراق والشام فزاد ثراؤها وتمكنت من بناء قوتها العسكرية التي حمت بها تلك الطرق وفرضت هيبتها في تلك الفترة.

فضلاً عن توسعها، وسوقها، والمبادلات التجارية التي كانت تتم فيها قد جعلها سوقاً للقبائل العربية المنتشرة في البادية وهذا مما أضفى عليها صبغة أخرى وهي الصبغة الدينية فصارت محجاً للقبائل العربية في تلك المنطقة الأمر الذي جعل حمايتها وأمنها تقع على عاتق جميع القبائل العربية التي احتضنت الحضر أصنامها ومعبوداتها. وهذا هو السر في نجاح الحضر بتجاوز الكثير من المحن والشدائد التي مرت بها على يد الرومان واردشير.

وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن جاورهم من ذوي السلطان الأكبر. مطبعة النهضة مصر/ 1936 جـ1 ص255.

(3) الملاح، د. هاشم: ن.م ص155 وانظر: محل، سالم أحمد: العلاقات العربية الساسانية خلال القرنين الخامس والسادس للميلاد. رسالة ماجستير غير منشورة/ كلية الاداب/ جامعة الموصل/ 1981 ص116.

(1) الطبري: ن.م جـ2 ص49.

وهكذا فقد أسدل التاريخ ستاره على هذه المدينة والمملكة العربية، وتحولت القبائل العربية بولاتها الى الحيرة، الإمارة العربية الناشئة في ظل الساسانيين وقد نعى بعض الشعراء العرب الحضر بعد سقوطها، فهذا الشاعر بن ألة القضاعي يقول فيها[1].

الم يحزنك والانباءُ تنمي * بما لاقت سراة بني عبيدِ
ومصرع ضيزن وبني أبيه * واحلاس الكتائب من تزيدِ
أتاهم بالفيول مجللاتٍ * وبالابطال سابور الجنود
يهدم من أواسي الحصن صخراً * كأن ثفاله زبر الحديد

ويقول عدي بن زيد العبادي[2]:

وأخو الحضر اذ بناه واذ دجـ * لة تجبى اليه والخابور
شاده مرمراً وجلله كلـ * ساً فللطير في ذراه وكور
لم يهمله رب المنون فناداه * ملك عنه فبابه مهجور

(2) نفسه: جـ2 ص50.
(1) نفسه: جـ2 ص50.

The Importance of the Hattra Location and Its influences in The situation of the Surrounding

[*]Salem Ahmad Mahl

Abstract

After the fall of the Assyrian State in the year of 612 B.C., the Arab tribes started wandering in the western and north western areas of Iraq and in the eastern and south eastern areas of Syria.

After the fall of Babylon in the year of 538 B.C. by the Akhmaned, this area came to be Known as "Arabia", i.e. the country of Arab. Hattra may be an Assyrian settlement. In the second century A.C., it became a religious and civil center for the wandering Arab tribes in this area.

It is worth mentioning that the location of such city between Iraq and Syria was important for the commerce to develop and commercial Asian goods to be transported from Iraq to Syria. The European goods were also transported though Syria to Iraq and the other Asian countries. These commercial activities developed this city to an Arab kingdom the Romans tried destroy this city but gailed. Meanwhile, Hattra mand use of the conflict between Saluges (i.e. the governors of Iraq, Iran and Syria) and Romans and later on between the Parthean and Roman. The development of Hattra is due to the peaceful policy of the parthean in that era. After the rise of the Sasynain State in the year of 224 A.C., Ardasher tried to occupy it, but he failed. At the time of his son, Sapor Ist, the latter was able to occupy this city in the year of 244 A.C.

[*] Dept. of History/ College of Arts/ University of Mosul.